الفصل الحادي عشر

احتجاج الامراء

كان الاحتجاج الذي قدمه الامراء المسيحيون في المانيا في مجمع سبايرز في عام ١٥٢٩شهادة من أنبل الشهادات التي قدمت في صالح الاصلاح. وقد ضمنت شجاعة رجال الله اولئك وايمانهم وثباتهم للاجيال التالية حرية الفكر وحرية الضمير. وقد اطلق احتجاجهم على الكنائس المصلحة اسم بروتستانت (اي المحتجين). والمبادئ المذكورة في ذلك الاحتجاج هي « جوهر البروتستانتية » (١٥٦).

ولكن جاء على الاصلاح يوم ظلام ووعيد. فعلى الرغم من منشور ورمس الذي فيه اعلن ان لوثر صار طريد القانون وحُرِّم نشر تعليمه أو معتقداته، فقد ساد التسامح الديني في أرجاء الامبراطورية وأوقف الله القوات المناوئة للحق عند حدها. كان شارل الخامس قد عقد العزم على سحق الاصلاح، ولكن في أحيان كثيرة كلما كان يرفع يده ليضرب كان يضطر الى تحويل الضربة بعيدا. ومرارا كثيرة كان يرى ان الهلاك المباشر السريع لكل من تجرأوا على مقاومة روما أمر لا مفر منه. ولكن في اللحظة الحرجة كانت جيوش الاتراك ترى على حدود البلاد الشرقية، أو كان ملك فرنسا أو البابا نفسه الذي كان يغار من عظمة الامبراطور

المتزايدة يشن عليه الحرب، وهكذا في غمرة منازعات الامم وضوضائها تُرك الاصلاح ليتقوى ويمتد.

ومع ذلك فان الولاة البابويون كانوا قد اخفوا ضغائنهم حتى يستطيعوا ان يتكاتفوا ضد رجال الاصلاح. كان مجلس سبايرز الذي انعقد في عام ١٥٢٦ قد منح لكل ولاية الحرية التامة في الشؤون الدينية الى ان يجتمع المجلس العام، ولكن ما إن زال الخطر الذي بسببه صدر هذا التصريح حتى استدعى الامبراطور المجلس ليلتئم مرة ثانية في سبايرز في عام ١٥٢٩ لاجل سحق الهرطقة. وكان لا بد من استمالة الامراء بالوسائل السلمية ان أمكن لينحازوا الى جانب الامبراطور ضد الاصلاح، فان لم تفلح هذه الوسائل كان شارل مستعدا لان يحارب بحد السيف.

ابتهج البابويون لذلك كثيرا، فقد حضر الى سبايرز عدد غفير منهم وجاهروا بعدائهم لرجال الاصلاح وكل من حبذوا أعمالهم أو قبلوا مبادئهم. وقد قال ميلانكثون : « اننا اقذار العالم ووسخ كل شَيْء لكنّ المسيح سينظر من عليائه الى شعبه المسكين ويحفظهم » (١٥٧). وقد حرم على الامراء الانجيليين الذين حضروا المجلس ان يسمحوا بأن ينادى بالانجيل حتى في مساكنهم. الا ان شعب سبايرز كانوا ظامئين الى كلمة الله، فعلى رغم هذا النهي تقاطرت آلاف منهم الى الخدمات التي كانت تقام في كنيسة منتخب سكسونيا.

هذا الامر عجَّل بحلول الازمة، فقد صدرت من قبل الامبراطور رسالة تقول للمجلس انه لكون القرار الذي منح الشعب حرية الضمير قد نجم عنه الشغب والاضطراب فان الامبراطور ينوي الغاءه، فأثار هذا التصرف التعسفي غضب المسيحيين الانجيليين وفزعهم. وقد قال أحدهم : « ها هو المسيح يقع مرة ثانية فريسة بين أيدي قيافا وبيلاطس ». وزادت قسوة البابويين وهياجهم، وأعلن أحد المتعصبين منهم قائلا : « ان الاتراك خير من اللوثريين، لان الاتراك يحفظون أيام الصوم أما اللوثريون فيتعدونها. فلو كان لنا ان نختار إما كتاب الله المقدس أو الضلالات المتوطنة في الكنيسة من قديم فلا بد أن نرفض الكتاب المقدس».

وقال ميلانكثون : « في كل يوم وفي وسط المجمع كله يقذفنا فابر، نحن المتمسكين بالانجيل، بحجر » (١٥٨).

كان التسامح الديني قد تثبَّت بحكم القانون وقد عزمت الولايات الانجيلية على مقاومة كل اعتداء على حقوقها. واذ كان لوثر لا يزال تحت الحرمان الذي قد أوقعه عليه مرسوم ورمس فلم يكن مسموحا له بالذهاب الى سبايرز، فحل في مكانه زملاؤه الامراء الذين قد أقامهم الله للدفاع عن حقه في تلك الحالة الطارئة. كان فريدريك منتخب سكسونيا النبيل، الذي حمى لوثر من قبل، قد مات، فرحّب اخوه الدوق جون، الذي صار حاكما من بعده، بالاصلاح بفرح. ومع أنه كان من دعاة السلام فقد أبدى نشاطا وشجاعة عظيمين في كل المسائل المتعلقة بمصالح الايمان.

مواجهة الازمة في سبايرز

طلب الكهنة ان تخضع الولايات التي اعتنقت الاصلاح لسلطان روما خضوعا كاملا. ومن الناحية الاخرى تمسك المصلحون بحقهم في الحرية التي قد مُنحت لهم من قبل. ولم يرضوا بان تعود روما لتبسط سلطانها على تلك الولايات التي قد قبلت كلمة الله بفرح عظيم.

وقد اقتُرح اخيرا حل وسط مؤداه انه في الاماكن التي لم ترسخ فيها قدم الاصلاح ينبغي تنفيذ مرسوم ورمس بكل دقة وصرامة. « وفي الاماكن التي انحرف الناس فيها عن الاصلاح والتي لا يمكن قبوله فيها من دون خطر نشوب ثورة ينبغي لهم على الاقل الا يقوموا بأي اصلاح جديد، وينبغي الا يلمحوا الى أية نقطة هي موضوع الجدال، ويحظر عليهم مقاومة الاحتفال بذبيحة القداس، وعليهم الا يسمحوا لاي كاثوليكي باعتناق المذهب اللوثري» (١٥٩). وقد أقر المجلس هذا الاجراء الذي رضي به الكهنة والاساقفة بغبطة عظيمة.

فلو نُفذ هذا المنشور « لما كان يمكن للاصلاح ان يمتد... إذ لم يكن معروفاً بعد، ولما أمكن ارساؤه على أسس راسخة .. حيث كان موجوداً من قبل » (١٦٠) . وكانت تحرَّم حرية الكلام، ولم يكن يسمح بانضمام متجددين اليهم. وقد طُلب من أصدقاء الاصلاح ودعاته الخضوع لهذه القيود والنواهي في الحال. فبدا وكأن آمال العالم توشك ان تنطفئ. « ان رسوخ قدم الحكومة البابوية من جديد ... لا بد ان يعيد الاضطهادات والاهانات القديمة ». وسرعان ما يعطي المجال «للقضاء على ذلك العمل الذي قد تلقى هزات عنيفة، قضاء تاما بواسطة التعصب والخصومات » (١٦١).

نتائج عظيمة في خطر

وعندما اجتمع الحزب الانجيلي للتأمل والتشاور كانوا ينظرون بعضهم الى بعض بفزع وارتياع، وجعلوا يتساءلون في ما بينهم قائلين: « وما العمل ؟ » ان نتائج عظيمة كانت مستهدفة للخطر. « هل يخضع رجال الاصلاح ويقبلون المرسوم ؟ ما كان اسهل عليهم في هذه الازمة الهائلة ان يأخذوا بمشورة تجعلهم ينهجون نهجا خاطئا ! وما كان أكثر الحجج الغراراة المقبولة ظاهرا والاسباب المعقولة التي كان يمكن أن تجعلهم يخضعون ! لقد أُعطي للامراء اللوثريون ضمان لممارسة شعائر ديانتهم بكل حرية، كما أعطي هذا الضمان لكل رعاياهم الذين كانوا قد اعتنقوا المبادئ المصلحة قبل اتخاذ ذلك الاجراء. أفلم يكن ذلك كافيا لهم ؟ ما أكثر المخاطر التي سينجون منها لو خضعوا ! وما أكثر المخاطرات والمحاربات المجهولة التي ستحل بهم اذا هم أمعنوا في المقاومة ! ومن يدري ما هي الفرص السانحة التي يحملها لهم المستقبل ؟ علينا ان ننشد السلام ونمسك بغصن الزيتون الذي تمده لنا روما ونضمد جراح المانيا. بمثل هذه الحجج كان يتاح للمصلحين ان يبرروا قبولهم السير في طريق كان كفيلا بان يقضي على قضيتهم القضاء المبرم .

« ولحسن الحظ نظروا وتأملوا في المبدأ الذي بُنيت عليه هذه التسوية وتصرفوا بايمان. وماذا كان ذلك المبدأ ؟ لقد كان من حق روما ان ترغم ضمائر الناس وتحرِّم التساؤل الحر. ولكن ألم يكن من حقهم وحق رعاياهم البروتستانت أن يتمتعوا بالحرية الدينية ؟ نعم كان لهم أن يتمتعوا بها كاحسان ومنَّه مشروطة ، لا كحق مكتسب. ولكن في كل ما كان خارجا عن نطاق تلك التسوية كان ينبغي ان يتحكم مبدأ السلطة العظيم. فالضمير لا يؤخذ بعَين الاعتبار، وكانت روما هي القاضي الذي لا مرد لحكمه والذي ينبغي اطاعته. ان قبول تلك التسوية المقترحة كان يمكن ان يكون اذعانا ايجابيا لحصر الحرية الدينية في اقليم سكسونيا المصلحة وحدها. أما في ما عدا ذلك من كل بلدان العالم المسيحي فكانت حرية التساؤل والاعتراف بالايمان المصلح معتبرة جرائم جزاؤها السجن والموت حرقا. فهل يرضون بحصر الحرية الدينية في نطاق ضيق ؟ أو يرضون بان يشاع بان الاصلاح لن يكون له مهتدون جدد، أو انه قد احرز آخر انتصاراته، وانه اينما كان سلطان روما وسيادتها في الوقت الراهن فستدوم تلك السيادة ؟ وهل كان يمكن أن يتبرأ المصلحون من دماء مئات وألوف الناس الذين تبعا لهذه التسوية كانوا سيسلمون أرواحهم في اراض خاضعة لحكم البابوية؟ في تلك الساعة الحرجة العظيمة كان معنى هذا انهم يخونون قضية الانجيل وحريات العالم المسيحي » (١٦٢). لقد كانوا « يفضلون على هذا تضحية كل شيء حتى املاكهم وتيجانهم وحياتهم» (١٦٣).

قال الامراء : « لنرفض هذا المرسوم. ففي ما يختص بالضمير لا سلطان للاغلبية ». وقد أعلن المبعوثون قائلين : « اننا مدينون بالسلام الذي تنعم فيه الامبراطورية لمرسوم عام ١٥٢٦، فاذا ألغي فلا بد من حدوث اضطرابات وانقسامات في المانيا. ان المجلس عاجز عن عمل شيء أكثر من ابقاء الحرية الدينية الى أن ينعقد المجمع » (١٦٤). ان من واجب الدولة ان تحرص على حرية الضمير، وهذا هو مدى سلطانها في المسائل الدينية. فكل

حكومة علمانية تحاول تنظيم الممارسات الدينية أو ترغم الناس على حفظها بواسطة السلطة المدنية انما تضحي بنفس المبدأ الذي لاجله حارب المسيحيون الانجيليون وكافحوا بكل شجاعة.

ولقد عقد البابويون العزم على القضاء على ما أسموه « عناداً جريئاً»، وبدأوا بمحاولة ايقاع الانقسامات بين معاضدي الاصلاح وبادخال الخوف الى قلوب من لم يجاهروا بمناصرته. اخيرا دعي ممثلو المدن الحرة للمثول أمام المجلس وطلب منهم اعلان ما اذا كانوا يرضون بشروط الاقتراح أم لا، فطلبوا التأجيل لكنّ طلبهم رُفض. وعند الامتحان وقف ما يقرب من نصف عددهم يناصرون المصلحين. وأولئك الذين رفضوا تضحية حرية الضمير وحق الفرد في ان يكون له حرية رأي عرفوا جيدا أن تصرفهم سيجعلهم هدفاً للانتقاد والإدانة والاضطهاد. وقد قال أحد المندوبين : « علينا اما ان ننكر كلمة الله أو أن نُحرَق » (١٦٥).

وقفة الامراء المشرِّفة

رأى الملك فرديناند الذي ناب عن الامبراطور في حضور المجلس ان المرسوم قد تنجم عنه انقسامات خطيرة ما لم يقتنع الامراء بقبوله وتأييده. ولذلك لجأ الى قوة الاقناع اذ كان يعلم جيدا ان الالتجاء الى العنف والقوة مع مثل اولئك الرجال لن يزيدهم الا اصرارا. ولذلك « التمس من الامراء قبول المرسوم مؤكدا لهم ان ذلك سيجعل الامبراطور راضيا عنهم غاية الرضى». لكنّ هؤلاء الرجال الامناء كانوا يعترفون بسيادة أعظم وأسمى من سيادة الحكام الارضيين، ولهذا أجابوه برصانة : « اننا مستعدون لان نطيع الامبراطور في كل ما يؤول الى اقرار السلام وتمجيد الله واكرامه » (١٦٦).

اخيرا اعلن الملك أمام المجلس قائلا للمنتخب واصدقائه : « ان المرسوم أوشك أن يصبح في صورة ارادة امبراطورية، وانه لم يبقَ أمامهم الا الخضوع

للاغلبية ». قال هذا ثم انسحب من المجمع، وبذلك لم يعطِ للمصلحين مجالاً للمداولة أو التشاور أو حتى تقديم جواب. « وعبثاً ارسلوا وفداً الى الملك ليتوسلوا اليه أن يعود ». أجابهم قائلا : « لقد بات الامر مقرراً، ولذلك فلم يبق أمامكم الا الخضوع » (١٦٧).

كان رجال الحزب الامبراطوري مقتنعين ان الامراء المسيحيين سيظلون متمسكين بالكتاب المقدس على انه اسمى من العقائد والتعاليم البشرية ومطاليبها، كما كانوا عالمين ايضا انه اينما اعتنق الناس هذا المبدأ انهار سلطان البابوية. ولكنهم كغيرهم من آلاف الناس منذ ذلك الحين اذ « كانوا ينظرون الى الاشياء التي تُرى » كانوا يخدعون انفسهم قائلين ان دعوى الامبراطور والبابا قوية، أما دعوى المصلحين فضعيفة. فلو استند المصلحون الى المعونة البشرية وحدها لاصبحوا عاجزين كما قد ظنهم البابويون. ولكنهم مع قلة عددهم ومع انهم كانوا منشقين على روما كانت لهم قوتهم. لقد استأنفوا « من قرار المجلس الى كلمة الحق ومن الامبراطور شارل الى يسوع المسيح ملك الملوك ورب الارباب » (١٦٨).

لمّا رفض فرديناند الالتفات الى اقتناعات الامراء المستقيمة السليمة صمم اولئك على تعليق اهمية كبيرة على غيابه بان يقدموا احتجاجهم امام المجلس الوطني من دون ابطاء. ولذلك كتبوا بيانا رسميا وقدموه الى مجلس الامة.

وهذا ما جاء في عريضتهم : « اننا نحتج في عريضتنا هذه امام الله خالقنا وحافظنا وفادينا ومخلصنا والذي سيكون ديّاننا في يوم ما، كما نحتج ايضا امام كل الناس وكل الخلائق اننا نحن بالاصالة عن انفسنا وبالنيابة عن رعايانا لن نقبل أو نتمسك بما جاء في الامر الصادر اذا كان يخالف ارادة الله ويناقض كلمته المقدسة وضمائرنا المستقيمة وخلاص نفوسنا.

« ما هذا! أنصادق على هذا المرسوم؟! هل نجزم انه عندما يدعو الله القدير انسانا لمعرفته لا يستطيع هذا الانسان ان يقبل معرفة الله بسبب

المرسوم!». «لا تعليم اكيد الا اذا تطابق وكلمة اللّه... الرب ينهانا عن قبول اي تعليم آخر غير تعليمه... واقوال الله المقدسة ينبغي ان توضحها آيات اخرى، أكثر وضوحا... ان الكتاب المقدس ضروري في كل شيْء للمسيحي. وفهمه أمر ميسور وهو يعتبر انه يبدد الظلمات. لقد عزمنا بنعمة اللّه على حفظ البشارة النقية القاطعة بكلمة الله وحدها كما هي مدونة في أسفار العهد القديم والعهد الجديد من دون ان نزيد عليها شيئا آخر يناقضها. ان كلمة اللّه هي الحق وحده وهي القانون الاكيد لكل تعليم ولكل حياة، ولا يمكنها أن تخذلنا أو تخدعنا. فالذي يبني على هذا الاساس سيصمد امام كل قوات الجحيم، في حين ان كل الاباطيل البشرية التي تقف ضد الكتاب ستسقط امام وجه الله ».

« فلهذا السبب نحن نرفض حمل النير المفروض علينا ». « ونحن في الوقت نفسه ننتظر من جلالة الامبراطور ان يعاملنا كسيد مسيحي يحب اللّه فوق كل شيء واننا نعلن اننا مستعدون ان نقدم لجلالته ولكم ايها السادة الاجلاء المحبة والطاعة اللتين هما واجبنا الشرعي العادل » (١٦٩).

تأثر أعضاء المجلس تأثرا عميقا. وقد ملأت الدهشة والفزع قلوب غالبيتهم بسبب جرأة اولئك المحتجين. فبدا المستقبل امامهم عاصفا وغير مأمون أو مضمون، وكأن الانقسامات والخصومات وسفك الدماء امور لا مفر منها. لكنّ المصلحين اذ كانوا واثقين من عدالة قضيتهم ومستندين الى ذراع اللّه القدير « «امتلأوا شجاعة وثباتا ».

« ان المبادئ المتضمَّنة في هذا الاحتجاج الشهير... اشتملت على جوهر البروتستانتية، فهذا الاحتجاج يقاوم اثنين من المساوئ التي يرتكبها الانسان ضد الامور المختصة بالايمان، أولهما تهجُّم الحكام المدنيين، والثاني سلطة الكنيسة الاعتباطية. والبروتستانتية ترفع سلطان الضمير فوق الحكام بدلا من هذه المساوئ، وترفع كلمة اللّه فوق الكنيسة المنظورة. فهي أولا ترفض تدخل السلطة المدنية في الشؤون الالهية، وتقول مع الأنبياء والرسل : "ينبغي أن يطاع اللّه أكثر من الناس " . وأمام تاج الامبراطور شارل الخامس ترفع

اكليل يسوع المسيح، ولكنها تذهب الى أبعد من ذلك، فهي تقدم هذا المبدأ القائل بان كل التعاليم البشرية ينبغي أن تخضع لاقوال اللّه وتقف صاغرة أمامها » (١٧٠). وفوق هذا فقد أكد اولئك المحتجون ان لهم الحق في المجاهرة باقتناعاتهم بالحق بكل حرية. فهم لن يؤمنوا ويطيعوا كلمة اللّه وحسب بل وسيعلمونها أيضاً للناس، وقد انكروا على الكهنة والحكام حق التدخل. كان الاحتجاج المقدم للمجلس في سبايرز شهادة احتفالية ضد التعصب الديني وتأييداً لحق كل الناس في عبادة اللّه بموجب ما تمليه عليه ضمائرهم.

تبنِّي الاحتجاج

قدِّم ذلك البيان ونقش في عقول آلاف الناس كما سُجل في اسفار السماء حيث لن يستطيع بشر ان يمحوه. وقبلت كل المانيا الانجيلية هذا على انه تعبير عن ايمانها وعقيدتها. وفي كل مكان كان الناس يرون في هذا البيان بشيرا بعصر جديد افضل. وقد قال أحد الامراء البروتستانت في سبايرز : « ليحفظكم اللّه القدير الذي اعطاكم نعمة لتقديم هذا الاعتراف بهذه الشجاعة وهذا النشاط وهذه الحرية. ليحفظكم في ثباتكم المسيحي الى يوم الدين » (١٧١).

لو ان الاصلاح بعد هذا القدر من النجاح الذي احرزه رضي بمسايرة الظروف للحصول على رضى العالم لبرهن على خيانته وتنكره لمبادئه، ولكان في ذلك القضاء التام عليه. ففي اختبار هؤلاء المصلحين النبلاء درس نافع لكل الاجيال التالية. وطريقة الشيطان في مقاومته الله وكلمته لم تتغير. وهو في هذه الايام لا يزال يحارب الكتب المقدسة لكونها مرشد الانسان في حياته، كما كان يفعل في القرن السادس عشر. في ايامنا هذه انحرف الناس بعيدا من تعاليم الكتاب وفرائضه، وذلك فهم في حاجة الى الرجوع الى المبدأ البروتستانتي العظيم : الكتاب المقدس وحده كقانون للايمان والاعمال.

والشيطان لا يزال يستخدم كل وسيلة تحت يده للقضاء على الحرية الدينية. ان ذلك السلطان المضاد للمسيح، الذي قد رفضه اولئلك المحتجون في سبايرز، يحاول الآن بقوة ونشاط جديدين ان يستعيد سيادته الضائعة. وان التمسك ذاته بكلمة اللّه، الذي لا ميل فيه ولا انحراف والذي تجلى في تلك الازمة التي حلت بالاصلاح، هو الرجاء الوحيد للاصلاح في هذه الايام.

مجال ضيِّق للهرب

وقد ظهرت بعض بوادر الخطر الذي هدد البروتستانت، كما ظهرت ايضا بوادر تدل على ان يد اللّه قد امتدت لحماية الامناء. ففي تلك الاثناء « قاد ميلانكثون صديقه سيمون غريناوس في شوارع سبايرز بعجلة عظيمة، وألح عليه ان يعبر نهر الرين. اندهش غريناوس من هذا التصرف وهذا الاندفاع. فقال له ميلانكثون : « ان رجلا شيخا وقورا لا أعرفه ظهر أمامي فجأة وقال لي ان فرديناند سيرسل بعد لحظات بعض الضباط للقبض على غريناوس! ».

في ذلك اليوم كان فابر، أحد الملافنة البابويين المشهورين، قد افترى على غريناوس في عظة ألقاها، وفي نهايتها اعترض عليه لكونه قد دافع عن « الضلالات الشنيعة ». « وقد كظم فابر غضبه ولكنه في الحال توجه الى الملك الذي أعطاه أمرا ضد استاذ هيدلبرج الملحاح. ولم يشك ميلانكثون ان اللّه قد انقذ صديقه بكونه ارسل احد ملائكته القديسين لتحذيره.

واذ كان ميلانكثون واقفا ساكنا على شاطئ الرين ظل منتظرا حتى انقذت مياه ذلك النهر غريناوس من مضطهديه. فاذ رآه على الشاطئ الآخر صاح قائلاً : " أخيراً، نعم اخيراً أفلت من أيدي أولئك المتعطشين لسفك الدم الزكي". ولما

عدا ميلانكثون الى بيته قيل له ان بعض الضباط قلبوا بيته رأسا على عقب بحثا عن غريناوس » (١٧٢).

المجمع في أوجسبرج

كان الاصلاح سيزيد عظمة وسموا في نظر عظماء الارض. فالملك فرديناند رفض سماع أقوال الامراء الانجيليين، ولكن ستُمنح لهم فرصة فيها يعرضون قضيتهم أمام الامبراطور واحبار الكنيسة ورؤساء الدولة المجتمعين. فلكي يسكِّن الامبراطور شارل الخامس الخصومات والفتن قام في السنة التالية، بعد احتاج الامراء المقدم في سبايرز، واستدعى المجلس ليلتئم في أوجسبرج وأعلن انه سيرأسه بنفسه. وقد دُعي الرؤساء البروتستانت للذهاب الى هناك.

كان الاصلاح مهددا بمخاطر عظيمة، لكنّ المدافعين عنه وضعوا قضيتهم بين يدي الله، وتعهدوا بان يظلوا ثابتين في جانب الانجيل. وقد ألح مشيرو منتخب سكسونيا عليه بعدم حضور المجمع، وقالوا له أن الامبراطور قد طلب من الامراء ان يحضروا لكي يوقعهم في الشرك. ثم قالوا : « أليست مجازفة بكل شيء ان يحبس الانسان نفسه في داخل اسوار مدينة ومعه عدو جبار ؟ » لكنّ آخرين اجابوا بكل نبل قائلين : « ليتصرف الامراء بشجاعة فتنجو قضية الله » . وقال لوثر : «ان الله امين ولن يتركنا » (١٧٣). فخرج المنتخب قاصدا أوجسبرج يحيط به رجال حاشيته. وكان الجميع عالمين بالمخاطر التي تتهدده، وكثيرون تقدموا الى الامام ووجوههم عابسة وقلوبهم مضطربة، لكنّ لوثر الذي سار معهم يشيعهم الى كوبورغ أنعش ايمانهم الخائر اذ انشد الترنيمة التي كتبها في اثناء تلك الرحلة، وهي القائلة « الله ملجأ لنا وقوة ». فكانت تلك الترنيمة الجميلة سببا في تبديد فزع أولئك المسافرين وتطيراتهم وإعادة البهجة الى قلوب المحزونين منهم، اذ ألهمتهم الرجاء والشجاعة.

أما الامراء المصلحون فقد عقدوا عزمهم على ان يضعوا بيانا بآرائهم في شكل منهجي ومنسق ويرفقوا به الادلة الكتابية لكي يقدموه امام المجلس وأسند أمر اعداده الى لوثر وميلانكثون وشركائهما. وقد قبل البروتستانت هذا الاقرار على أنه شرح لايمانهم، واجتمعوا ليكتبوا اسماءهم على تلك الوثيقة المهمة. كان ذلك الوقت خطيرا وشاقا، وكان المصلحون مهتمين بالا تختلط قضيتهم بالمشاكل السياسية، وأحسوا بان الاصلاح ينبغي الا يمارس اي تأثير أو قوة أو نفوذ غير ما ينبعث من كلمة الله. فاذ تقدم الامراء المسيحيون ليوقعوا على ذلك الاقرار تدخل ميلانكثون قائلا : « ان علماء اللاهوت والخدام (القساوسة) هم الذين يقترحون هذه الامور، فلنحتفظ بسلطة عظماء الارض للشؤون الاخرى ». فأجابه جون منتخب سكسونياً قائلاً : « لا سمح الله ان تقصيني، فلقد عقدت العزم على أن أفعل الصواب من دون أن أضطرب خوفا على تاجي. اني أتوق الى الاعتراف بالرب. ان قبعتي كمنتخب ومنصبي ليسا شيئا بالنسبة الى صليب يسوع المسيح ». وبعدما قال هذا وقّع امضاءه. وقال أمير آخر وهو يمسك بالقلم : «اذا كانت كرامة ربي يسوع المسيح... تقتضيني أن أترك أموالي وحتى حياتي فسأفعل ذلك عن طيب خاطر ». واستأنف كلامه قائلا : « اني أفضل بالاحرى أن أنبذ رعاياي وأتخلى عن أملاكي وأترك أرض آبائي وأجدادي ولا شيء بيدي غير عصاي، على أن أقبل تعليما آخر غير ما تضمنه هذا القرار » (١٧٤). هكذا كان إيمان رجال الله أولئك وجرأتهم.

أعظم يوم في الاصلاح

جاء الوقت المحدد للوقوف امام الامبراطور. فاذ كان شارل الخامس جالسا على عرشه يحف به المنتخبون والامراء أمر بان يمثل أمامه المصلحون البروتستانت. ثم قُرئ إقرار إيمانهم. ففي ذلك المحفل الجليل الوقور عرضت حقائق الانجيل بكل وضوح كما أشير الى أخطاء الكنيسة البابوية، وحسنا قيل عن ذلك اليوم انه « أعظم أيام الاصلاح ومن امجد الايام في تاريخ المسيحية

والجنس البشري » (١٧٥).

قبل ذلك بسنين قليلة وقف راهب وتنبرغ وحيدا أمام المجلس الوطني. أما الآن فها أشرف أمراء الامبراطورية وأقواهم ينوبون عنه. كان محرما على لوثر أن يذهب الى أوجسبرج، لكنّه كان حاضرا بأقواله وصلواته. وقد كتب يقول : « اني فرح جدا لاني عشت الى هذه الساعة التي فيها تمجد المسيح بواسطة أمثال هؤلاء المعترفين الممتازين المشهورين وفي مثل ذلك المجمع المجيد » (١٧٦). وهكذا تم ما قاله الكتاب في (مزمور ١١٩: ٤٦): « واتكلم بشهاداتك قدام ملوك ...»

في أيام بولس كُرز أمام أمراء المدينة الامبراطورية ونبلائها بالانجيل الذي كان سجينا لاجله. وكذلك حدث في هذه المناسبة، اذ أن الانجيل الذي نُهي عن الكرازة به من المنبر نودي به من القصر، وما كان معتبرا انه من غير اللائق أن يصغي اليه الخدم والعبيد أصغى اليه رؤساء الامبراطورية وسادتها بدهشة وإعجاب. وكان المستمعون هم الملوك والعظماء، وكان الامراء المتوجون هم الذين كرزوا بالكلمة، وكانت العظة هي حق الله السامي. وقد قال كاتب : « انه منذ أيام العصر الرسولي لم يكن هنالك عمل أعظم ولا أبدع من هذا الاقرار » (١٧٧).

وقد أعلن أسقف بابوي قائلا : « كل ما قاله اللوثريون حق ولا نستطيع انكاره ». وقد وجه آخر هذا السؤال الى الدكتور إك قائلا : « هل يمكنك بواسطة المحاجة المعقولة أن تفند هذا الاقرار الذي قدمه المنتخب وحلفاؤه ؟ » فجاءه الجواب يقول : « لا يمكن ذلك بالاستناد الى كتب الانبياء والرسل، ولكنه ممكن من وجهة نظر الآباء والمجامع العامة ». فعاد السائل يقول : «لقد فهمت من كلامك الآن أن اللوثريين هم داخل الكتب المقدسة أما نحن فخارجها» (١٧٨).

انضم بعض امراء المانيا الى صف معتنقي الايمان المصلح، وأعلن الامبراطور نفسه أن تلك المواد البروتستانتية إنْ هي إلا الحق الصراح. وقد ترجم ذلك الاقرار الى لغات كثيرة، وتداولته أيدي الناس في كل أوروبا، وقبله ملايين الناس مدى الاجيال المتعاقبة على أنه تعبير عن ايمانهم.

ولم يكن عبيد الله الامناء يتعبون وحدهم، فاذ اتحدت ضدهم الرياسات والسلاطين وأجناد الشر الروحية في السماويات فالرب لم يترك شعبه. فلو فتحت عيونهم لرأوا البرهان على حضور الله ومساعدته كما قد رأى ذلك أحد الانبياء في القديم. فاذ وجه خادم أليشع نظر سيده الى الجيش المعادي المحيط بالمدينة والذي قطع عليهم سبيل النجاة صلى النبي قائلا : « يا رب أفتح عينيه فيبصر » (٢ ملوك ٦: ١٧)، وإذا بالجبل مملوء خيلا ومركبات نار، فلقد جاء جيش سماوي لحراسة رجل الله. وهكذا حرست الملائكة العاملين في الاصلاح وقضيته.

كان بين المبادئ التي حافظ عليها لوثر بكل ثبات وجوب عدم اللجوء الى القوة الزمنية لمساندة الاصلاح وعدم الركون الى السيف دفاعا عنه. وقد ابتهج قلبه وتهلل لان أمراء الامبراطورية قد اعترفوا بالانجيل ،ولكن عندما اقترحوا تكوين حلف دفاعي أعلن أن « عقيدة الانجيل ينبغي أن يدافع عنها الله وحده... فبقدر ما يقل تدخل الانسان بقدر ما يكون تدخل الله عظيما ومدهشا في صالح الانجيل. وكان يرى ان كل الاحتياطات السياسية كان مبعثها الخوف غير اللائق والشك الخاطئ » (١٧٩).

وعندما اتحد أعداء أشداء لتقويض أركان الايمان المصلح وملاشاته وكانت آلاف السيوف موشكة أن تُسل ضده كتب لوثر يقول: «ان غضب الشيطان قد ثار وهاج، وها هم الباباوات الاشرار يتآمرون ونحن مهددون بالحرب. فانصحوا الشعب أن يناضلوا بكل شجاعة أمام عرش الرب بالايمان والصلاة حتى اذا انهزم أعداؤنا بقوة روح الرب يُجبرون على أن يجنحوا الى السلام. أن حاجتنا الرئيسية وعملنا

الرئيسي هو الصلاة لان الناس يعلمون انهم مهددون بالموت بحد السيف ومهددون بغضب الشيطان؛ فليصّلوا » (١٨٠).

وفي تاريخ متأخر بعد ذلك اذ كان لوثر يشير الى الحلف الذي كان الامراء المصلحون يفكرون فيه أعلن أن السلاح الوحيد المستخدم في هذه الحرب ينبغي أن يكون « سيف الروح ». وقد كتب الى منتخب سكسونيا يقول : « ان ضمائرنا لا تسمح لنا بقبول تشكيل ذلك الحلف المقترح، فخير لنا أن نموت عشر مرات من أن نسمح بأن تسفك نقطة دم واحدة في سبيل محاماتنا عن حق الانجيل. ان دورنا هو أن نكون كغنم تساق الى الذبح، وينبغي لنا أن نحمل صليب المسيح. فلا تخف يا صاحب السمو. اننا بصلواتنا سننجز عملا أكثر مما يستطيع أعداؤنا أن يعملوه بمفاخراتهم. انما أحرص على ألا تلوث يديك بدماء اخوتك. فاذا رغب الامبراطور في الالتجاء الى المحاكم فنحن على استعداد لان نحاكم. أنت لا تستطيع أن تدافع عن ايماننا، فعلى كل واحد أن يؤمن على مسؤوليته ويخاطر بنفسه » (١٨١).

فمن معتكف الصلاة جاءت القوة التي هزت العالم بالاصلاح العظيم، اذ هناك بسكون مقدس ثبَّت عبيد الرب أقدامهم على صخرة مواعيده. ففي أثناء الصراع الذي كان محتدما في أوجسبرج « لم يكن يمر على لوثر يوم من دون أن يقضي ثلاث ساعات في الصلاة على الاقل، وكان يختارها من بين أفضل الساعات المكرسة للدرس » . ففي خلوته وهو في حجرته كان يُسمع وهو يسكب نفسه أمام الله بكلام « كله تعبد وخوف ورجاء كما يفعل الانسان وهو يخاطب صديقا له ». فكان يقول : « أنا أعلم أنك أنت أبونا والهنا وأنك ستشتت مضطهدي أولادك لانك أنت نفسك مهدد بالخطر معنا. ان هذه القضية كلها هي قضيتك ونحن لم نقحم أنفسنا فيها الا بارغامك لنا. فأنقذنا اذاً يا أبانا » (١٨٢).

وكتب الى ميلانكثون الذي كاد الجزع والخوف يسحقانه قائلا : «نعمة وسلام في المسيح ! أقول في المسيح لا في العالم. آمين ! اني أمقت مقتا شديدا هذه الهموم الهائلة التي تنتابك وتكاد تلتهمك . فان كانت

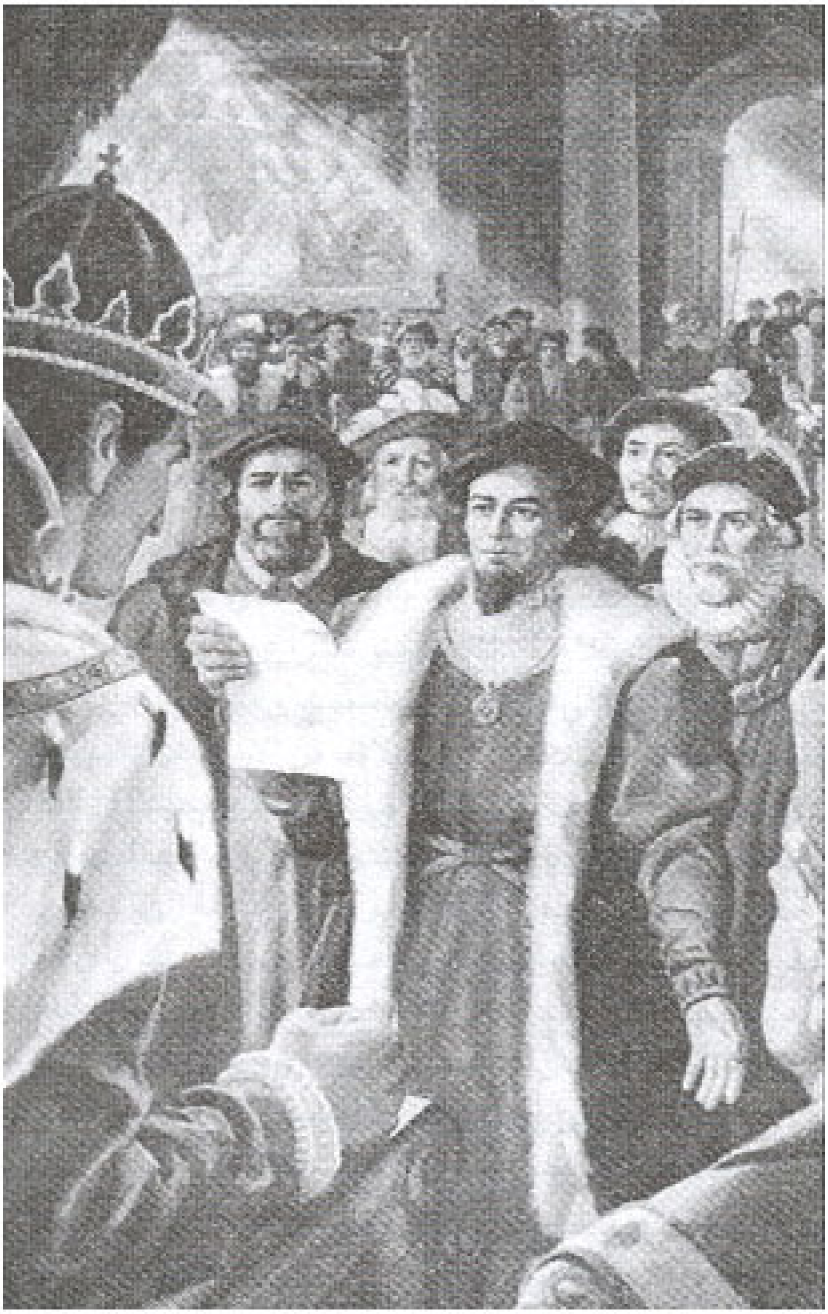

احتجاج الامراء

القضية غير عادلة فاتركها، أما إذا كانت عادلة فما لنا نكذِّب مواعيد ذاك الذي يأمرنا أن ننام بلا خوف... ان المسيح لن يتوانى عن القيام بهذا العمل الذي هو عمل الحق والعدل. انه حي ويملك، فمن أين يأتينا الخوف؟ » (١٨٣).

أصغى الله الى صرخات عبيده. فقد أعطى للامراء والخدام نعمة وشجاعة لحفظ الحق ضد رؤساء ظلمة هذا الدهر. لقد قال الرب : « هأنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختارا كريما والذي يؤمن به لن يخزى » (١بطرس ٢: ٦). لقد أقام المصلحون البروتستانت بناءهم على المسيح فلم يمكن لابواب الجحيم أن تقوى عليهم .